الامام الشعرانى

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

« احتفلت القاهرة فى الأسبوع الماضى
بذكرى الإمام الشعرانى ، وتلك تحية الذكرى ... »

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعرانى ، فجده الأعلى هو محمد بن الحنفية ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى فى الموجات المهاجرة من البيت العلوى ، التى اختارت الأطراف النائية من الإمبراطورية الإسلامية فراراً من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموى تارة ، وبين البيت العباسى تارة أخرى .

وفى المغرب الأقصى استطاع العلويون أن يؤسسوا دولا ، وأن ينشئوا حضارات وأن يظفروا بالحب والتأييد من شعوب الشمال الأفريقى كافة .

وكان الملك فى مدينة « تلمسان » وما جاورها لقبيلة « بنى زغله » وإلى تلك القبيلة ينتسب عبد الوهاب الشعرانى .

ولقد أرخ الشعرانى لنفسه فى كتابه — المنن — فقال :

« احمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك ، فإنى بحمد الله تعالى ، عبدالوهاب ابن أحمد بن على بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المكنى فى بلاد البهنسا ، بأبى العمران ، جدى السادس بن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محمد محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام على رضى الله عنه .

وكان جدى السابع هو السلطان احمد سلطانا بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى ولما اجتمع به جدى مومى أحبه الشيخ ورباه فى الطريق ثم أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقاله له : اسكن بناحية — هو — فإن بها قبرك فكان الأمر كما قال » .

واستقر الشيخ مومى أبو عمران ببلدة — هو — من أعمال مديرية قنا حيث توفى عام ٧٠٧ هـ ؟ بعد أن نجحت بها دعوته الصوفية ، واهتدى بهديها جمهور ضخم فى الصعيد الأعلى .

واستمرت أسرة الشعرانى بالصعيد تحمل لواء العلم والولاية ، حتى مطلع القرن التاسع الهجرى ، فهاجر حميدها أحمد إلى ساقية أبى شعره بالمنوفية ، وأسس بها زاوية للعلم والعباده .

ثم جاء إلى بيت الكريم أعظم ابنائه فولد عبد الوهاب الشعرانى على أصح الروايات وأشهرها فى يوم ٢٧ من شهر رمضان عام ٨٩٨ هـ ببلدة — قلقشنده — وهى قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما من مولده إلى قرية أبيه — ساقية أبى شعره — وإليها انتسب فلقب «بالشعرانى» وعرف بهذا اللقب واشتهر به ، وإن كان هو قد سمى نفسه فى بعض مؤلفاته بالشعراوى .

ويقص علينا الشعرانى تاريخ حضوره إلى القاهرة بذلك الأسلوب الأخاذ الصادق فيقول :

« وكان مجيئى إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة وعمرى إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، فأقمت فى جامع سيدى أبو العباس الغمرى ، وحفن الله على شيخ الجامع وأولاده فأقمت عندهم حتى حفظت فنون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ »

ثم يقول : « ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى معتقداً عند الناس ، يعرضون على كثيرا من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها ، وتارة أطراحها فى صحن الجامع فيلتقطها المجاورون » .

ولبث الشعرانى فى مسجد الغمرى يعلم ويتعلم ، ويتهجد ويتعبد ، سبعة عشرة عاما ، ثم انتقل إلى مسجد مدرسة أم خوند ، وفى تلك المدرسة بزغ نجم الشعرانى

وتألق تألقا ملأ الدنيا حوله صياحا ، صياحا امتزج فيه هتاف الاعجاب من محبيه بعاصفة الانتقاد من حساده وشانئيه .

ويحدثنا الشعرانى عن منهجه فى الدراسة والعلم وبداية تلمسه للمنهج الصوفى فيقول :

« ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ، ثم ألفية أبن مالك ثم التوضيح لابن هشام ، ثم جمع الجوامع ، ثم الفية العراقى ، ثم تلخيص المفتاح ، ثم الشاطبية ، ثم قواعد ابن هشام وغير ذلك من المختصرات .

ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة لكونه اجمع كتاب فى مذهب الشافعى ، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب وهو فى آخر الكتاب ، فلقينى بعض أرباب الأحوال بباب الخلق خارج باب زويلة فقال لى مكاشفا : قف على باب القضاء على الغائب ، ولا تقض على غائب بشىء .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شىء منه ، لكنى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة ؛ وكنت أقرأ محفوظى للمتن فى الشرح ، وأنظر كل شىء توقفت فى فهمه ، حتى صار شرحه للشيخ زكريا الانصارى عندى نصب عينى .

ثم لقينى الشيخ أحمد البهلول رضى الله عنه فقال لى مكاشفا : أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ماقد تعلمته ، فشاورت فى ذلك مشايخى فقالوا : لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم »

ثم يقول : « وقرأت محفوظاتى على شيوخى وهم نحو خمسين شيخا فقرأت على الشيخ أمين الدين شرح المنهاج للجلال المحلى ، وكنت اطالع درس ، القوت للأذرعى ، والقطعة والتكملة للأسنوى والزركشى ، والقطعة للسبكى ، والعمدة لأبن الملقن ، وشرح ابن قاضى شهبه وشرح الروض للشيخ زكريا ، واكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ جلال الدين ، وألصق به أوراقا حتى ربما تصير الحواشى أكثر من الكتاب ثم أقرؤها كلها عليه .

وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع للشيخ جلال الدين ، وحاشية الشيخ كمال الدين ، وشرح العراقى للجلال الحافظ السخاوى »

ويمضى الشعرانى فى الحديث عن دراسته وشيوخه حتى يذهل القارىء بذلك الفيض الدافق من الكتب التى أحاط بها وألم بدقائقها وأسرارها .

وفى غمرة هذه الدراسات العلمية المتلاحقة المتعددة ، لم ينس الشعرانى رياضاته وعباداته ومجاهداته ، لقد عاش حياته تحت ظلال المساجد متعلماً وعابداً ، لا يخوض فى لغو الحديث ولا يستمع إليه كما يقول ، فوقت الإنسان أضيق من هذا ؟ ويحدثنا الشعرانى عن منهجه التعبدى فيقول :

« . . . وكنت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار ، ثم أصلى الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر ، فأصلى الظهر ثم أذكر إلى العصر ومن صلاة العصر إلى المغرب إلى العشاء وهكذا ، فمكثت على ذلك نحو سنة ، وكنت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم اتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر ، وكان نومى غلبه تخطف رأسى خطفة بعد خطفة وخفقه بعد خفقة » :

ثم يعطف الشعرانى على ثمرة هذه المجاهدات فى خلقه وحياته فيقول :

« أنه بلغ مقاماً فى الزهد حتى لو أمطرت السماء ذهباً وصار الناس ينتهبونه لم يجد داعيا إلى أخذ شىء منه إلا لأمر مشروع ، ولو مر على تلال الذهب والفضة من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا ، ولا حساب عليها فى العقبى ، لم يتناول منها دينارا واحداً إلا لضرورة شرعية ، فقد فنى اختياره مع الله . وفقدت أعضاؤه الشهوة للمعصية أو الجاه ، ثم حضوره بقلبه دائماً مع الله . أو كما يقول : ثم حضورى مع الله حال أكلى ومشربى وكأنى فى الصلاة » .

وكانت كل هذه الرياضات والمجاهدات ، بداية للطريق الصوفى المضىء الصاعد ، فللطريق قواعده ومناهجه وأساتذته وشيوخه ، ولابد للمريد من قائد ودليل .

ولما جاء ميقات الشعرانى ليسلك الطريق الخالد ، سلوكا كما اشترط الصوفية ، وكما رسمه العابدون الواصلون ، أشار عليه أحمد البهلول ، صفيه ونجيه بأنه وإن كان قاب قوسين أو أدنى من النور الربانى ، والفتح الإلهى ، إلا أن القمم العالية لا يعبدها ويمهدها إلا الشيخ السالك المدرب الموهوب المأذون له .

واستقر كلام البهلول فى قلبه ، فلما آب إلى منزله ، وانتهى من أوراده وتسبيحاته ، لم يجد قلبه خالصاً ، بل وجد كلام البهلول يراوده ويأخذ عليه مجامع قلبه وخواطر نفسه ، حتى إذا أسلمه الجهد إلى سنة من النوم ، إذ بطيف تقلألأ أجنحته ، ويفوح طيبه وعطره ، يهمس له فى منامه بالإشارة والبشارة .

وإذا بالإشارة والبشارة تتحولان إلى كلام حلو جميل ، لازم قلب الشعرانى طوال حياته .

« إن أردت حياة قلبك الحياة التى لا موت بعدها ، فأخرج عن الركون إلى الخلق ، ومت عن هواك وإرادتك ، فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ، ويعطيك عطاء لا منع بعده ، ويريحك راحة لا تعب بعدها ، ويعلمك علماً لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها ، ويرفع قدرك فى قلوب عباده ، فلا تحقر بعدها ، لقد ذهبت أيام المحن ، وجاءت أيام المنن » .

واستيقظ الشعرانى عامر القلب بالأمانى فانطلق إلى شيوخ الطريق يلتمس عندهم طريقة ، ولنترك الشعرانى يحدثنا بحديثه القلبى المضىء عن انتقاله من مقامات العلم والزهد ، إلى مقامات الفتح والصفاء .

« ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ، ألتمس لديهم المفاتيح والأبواب ، فلم يكن لى وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة ، على المرصفى ، ومحمد الشناوى ، وعلى الخواص .

فسلكت على يد الأولين شيئاً يسيراً ، وكان فطامى على يد الخواص .

ومنهم عرفت يقيناً أنه لا بد من شيخ فى الطريق ، كما قال موسى للخضر : « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » .

وصلة الخواص بالشعرانى هى آية الآيات على مقام الشيخ فى الطريق ، وهى آية كونية على مقام العلم اللدنى ، فلقد كان الخواص أمياً ، وكان الشعرانى عالما ، ذلك هو حكم الظاهر ، أما حكم الباطن ، فلقد كان الخواص عالما ، وكان الشعرانى أميا ؟

وعلى هذا النهج تصوف الشعرانى ، فكان تصوفه بداية خلوده ، وكان تصوفه

فتحاً ربانياً كما يقولون : لعصره وللعصور المتعاقبة ، فلقد ربى الشعرانى آلافا من المريدين والتلاميذ المعاصرين له ، وجعل منهم مدرسة إيمانية تذكر الله ، وتدعو إلى هداه ، ولا تزال كتبه تربى وتمنح الهدى واليقين للآلاف من التلاميذ والمريدين .

وحسب الشعرانى أن رجال الاستشراق عكفوا على كتبه يستنطقونها ، ويلتمسون أسرارها ، ويقلبونها على أوجه شكوكهم الملحة ، ويعرضونها على موازينهم القاسية ، وخرجوا بعد الشوط الطويل يحنون الهامات أمام العملاق الضخم الشامخ ، ويطلقون القول معترفين فى وضوح وصراحة بأن الشعرانى أعجوبة من أعاجيب العباقرة المتصوفين ، أعجوبة لا يكاد تاريخ الإسلام يعرف لها مثيلا .

يقول المستشرق ـ فولرز ـ : « إن الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيا من الطراز الأول ، وكان فى الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً ، وإن كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من بينها أربعة وعشرين كتابا يعتبر إبتكاراً أصيلا لم يسبق إليه أبداً ، ولم يعالج فكرتها أحد قبله » .

ويقول العلامة ـ ماكدونالد ـ : « إن الشعرانى كان رجلا درا كا نفاذاً مخلصاً واسع العقل » ويقول فى موضع آخر : « إنه كان يجمع بين أعظم المميزات ، وإنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ ، وكان عقله من العقول النادرة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى فى الإسلام ، وإنه رجل أخلاق تهزه أنفة عالية » .

ويقول المستشرق ـ نيكلسون ـ : « إنه أعظم صوفى عرفه العالم الإسلامى كله وإنه منذ فتح المغول العالم الإسلامى ركدت الحركة الفكرية فى الإسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد ، فلا تجد بوادر انطلاق أو إنتاج خصب منتج أو أى أثر لتفكير أصيل وضىء باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعرانى الصوفى ، والشعرانى بالذات مفكرا مبدعا أصيلا ، أثر تأثيراً واسع المدى فى العالم الإسلامى ، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراء إلحاحا متواصلا فى طلب مؤلفاته » .

ولقد جاء الشعرانى إلى العالم الإسلامى فى ميقاته ليكون مجدد القرن العاشر جاء كفاء لحاجيات العالم الإسلامى .

جاء مكافحاً مصلحاً ، وزعيماً قائداً ، ومرشداً هادياً ، فتمثلت فيه خصائص تلك الصفات فكان كما لقب : أبا المواهب .

حرر التصوف من الأساطير والبدع ، وجلاه محمدياً قرآنياً ، كما إراده الله لعباده قوة روحية محلقة فى الأفق الأعلى .

وحرر الفقه من جموده وتزمته ، فكان الأصولى الألمعى الذى مزج الفقه بحرارة الإيمان ، فانقذه من الجفوة والجفاف وحببه إلى الجماهير ، يوم جعله لامجرد أحكام شرعية فحسب ، بل حقائق روحية مضيئة ملهمة .

وحرر علم الكلام ـ التوحيد ـ من نزوات المجسدين ، وأهواء المجادلين وأعاده إلى نوره ورونقه الإيمانى الذى عرفه واهتدى به الصدر الأول .

وأنقذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار ، والجرى وراء الأوهام والخيالات وردها إلى النبع الصافى ، والعمل الخالص لوجه الله .

ولم ينسه جهاده الدينى زعامته الشعبية ، فكان المصلح الاجتماعى المدافع عن الفقير والمسكين والضعيف ، القائم فى وجه الولاة والحكام ، يرفع كلمة الحق ، وينتزع حقوق الضعفاء من الأقوياء .

ووقفت الدنيا فى عهده ترقب كلمة من فيه ، أو إشارة من يده ، فهو الملجأ والملاذ للمظلوم ينشد حقا ، والظالم يطلب رحمة ، وهو المرشد الهادى إلى حقائق الإيمان ، ودقائق العقائد ، ومشكلات الفكر والحياة ، وهو الزعيم الحبيب الذى إذا غضب اضطربت لغضبه قلوب الملايين .

وهو بعد هذا وذاك ، مؤرخ التصوف والمتصوفة ، وخليفة الغزالى الأوحد على الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والتعبدية فى الإسلام .

ثم هو فوق ذلك كله رجل الأخوة والإنسانية بأدق معانى تلك الأخوة ، ولهذا كان يشارك بوجدانه بل بكل أحاسيسه المظلومين والمحرومين ، يشقى لشقائهم ، ويتألم لألمهم .

يقول الشعرانى : « إنى لأشعر بشعور المعذبين والمظلومين ، حتى لكأن كل عذاب أو ظلم وقع بأحد من الناس وقع بى » .

كان الشعرانى يرى أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا شارك الناس كافة أحزانهم وآلامهم ، لأن الإنسانية وحدة متماسكة ، خيرها مشترك ، وعذابها مشترك .

يقول الشعرانى : «من ضحك أو استمتع بزوجة ، أو لبس ثوبا مبخراً ، أو ذهب إلى مواضع المتنزهات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء » .

ويقول متحدثا عن مبادئه : « ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية فإنهم أشقى الناس حينئذ » .

ثم يقول من الأفق الأعلى : « . . . ثم غيرتى على أذنى أن أسمع زورا ، وعينى أن تنظر محرما ، ولسانى أن يتكلم باطلا » .

وتمتد رحمة الشعرانى إلى الحيوان الأعجم ، لأنه ضعيف مسخر للإنسان فيقول : « ثم كثرة شفقتي على دابتى ، وكراهيتى أن أحمل سوطا » .

بل لقد كان الشعرانى يرى أن العبادة لا تصاح إلا بصلاح القلب ، ونقاء الأخلاق ، فكان لا يقوم إلى الصلاة ، إلا إذا فتش قلبه ، هل فيه غل أو حقد أو حسد أو غيبة أو شهوة صغيرة أو كبيرة ، بل كان يستحى أن ينام وفى قلبه شىء من هذا لأن النوم رحلة الروح إلى الملأ الأعلى .

ويستطرد الشعرانى قائلا : « . . . ثم أخذى كل كلام وعظت به الناس فى حق نفسى أولا ، وفى حق الناس ثانياً ، واستغفارى من ذلك ثالثاً ، ثم عفوى العام عن كل مسىء إلى » .

ويسمو الشعرانى فى أدب النفس ، ويرتفع فى معارج الأخلاق إرتفاعا يعز على سواه فيقول :

« . . . ومما أنعم الله به على عدم خروجى من بيتى إلا إذا علمت من نفسى القدرة بإذن الله على هذه الثلاث خصال . . تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى منهم ، وجلب الراحة لهم »

فإذا كملت هذه الثلاث ارتفع الشعرانى درجة بل درجات فوق القمة الشامخة ؛ فيضع — الطليسان — على وجهه ليكف بصره عن فضول الناس :

تلك الكلمات المضيئة الصافية التى تتلألأ بالنبل والشرف ، هى بعض خلق الشعرانى الصوفى ، وإنه لخلق يرفعه درجات ودرجات فوق علمه وزعامته :